البروتوكولات واليهودية والصهيونية

عبد الوهاب المسيري

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣. ٢٥٤ صفحة.

ثمة طمأنينة مريبة تغمر كثيرين من الكتاب العرب حينما يتصدون للكتابة عن اليهود واليهودية والصهيونية. ومن مظاهر هذه الطمأنينة الركون إلى أنصاف الحقائق، وإلى الأوهام المعرفية الموروثة، ثم إقامة معمار نظري عليها لتبدو متماسكة ومتينة ويمكن الاحتكام إلى نتائجها. ومع أن الشك هو أبسط عناصر التفكير العلمي والنقدي، إلاّ إن الكتاب العرب، في معظمهم، ما برحوا مطمئنين إلى ما لديهم من بديهيات، وإلى ما هم عليّه من يقينيات زائفة. ولعل في ذلك بعض الراحة لهم، واجتناباً لمتاعب البحث والتدقيق والتحقيق والمقابلة. وهؤلاء، لضعف تكوينهم العلمي، تميل عقولهم إلى الصيغ البسيطة التي لا تحتاج إلى عناء وإنعام نظر وإرهاق بصر. لذلك فإن أي صيغة بسيطة تعفيهم من عناء البحث، وتجعلهم يهجعون إلى طراز "ممتع" من الكسل العجيب. غير أن كثيرين من الكتاب العرب يستندون في أوهامهم لا إلى الأكاذيب وإنما إلى "حقائق جزئية" ووقائع ربما حدثت، فعلاً، تحت أسماع الناس وأبصارهم. أي أن هؤلاء لا يختلقون الوقائع وإنما يجتزئونها. وهذه الوقائع، في الأساس، هامشية ومضللة في كثير من الأحيان، لذلك تسمى "أكاذيب حقيقية" (true lies)، مثل قصة "المؤامرة اليهودية"، أو فكرة "القوة الخفية"، فضلاً عن خرافة "بروتوكولات حكماء صهيون" و"الحكومة السرية" التي تسيطر على العالم بأسره!

لا يحتاج العرب إلى مزيد من الخرافات البتة. حسبنا هذا العياء الفكري الكثيف الذي ساهمت في صنعه السلفيات القاتلة والأصوليات الصاعدة معاً. لهذا يمتلك كتاب "البروتوكولات واليهودية والصهيونية" فضيلة نقدية فائقة الأهمية؛ فهو يتصدى، بالحجة والبرهان، لهذه الخرافة الشائعة جداً في الكتابات العربية، ويفند الغاية المهلهلة التي تستند إليها فكرة ترويج "بروتوكولات حكماء صهيون" في الأذهان العربية، ويسخف الآراء التي

يتبناها البعض عن "أن كره اليهود والتشهير بهم وإظهار شرورهم الحقيقية أو المتخيلة هو أنجع طريقة لمحاربة الصهيونية. [وهؤلاء] يتصورون أن ترويج وثيقة مثل البروتوكولات هو جزء من التصدي للعدو الصهيوني، ولذا يخلعون عليها هالة من الأهمية ويحيطونها بكثير من الرهبة باعتبار أنها تشكل مفتاحاً لفهم الشخصية اليهودية والمشروعات الصهيونية" (ص ٥). وعلى الرغم من ذلك، فإن كتابات كثيرة لا تنفك تروّج أن ثمة تماثلاً كاملاً بين النص الديني وسلوك الأفراد والجماعات. وهذه الفرضية ساذجة علمياً، فمن المحال أن يفهم الباحث سلوك الدولة الإسرائيلية استناداً إلى التوراة أو التلمود أو البروتوكولات، تماماً مثلما لا نستطيع أن نفسر سلوك الدول الإسلامية وخياراتها السياسية استناداً إلى القرآن والسنّة. إن النص الديني يؤثر ولا شك في سلوك الأفراد والمجموعات، لكن أثره في السياسات العليا للدول لا يكاد يظهر على الإطلاق. ومع ذلك، فما زال بعض الكتبة العرب كلما أراد أن يتحدث عن اليهود يعود إلى ملتقطات متفرقة من التلمود ليقيم منها خطابه المتهاوي. وللعلم، فإن التلمود لم يترجم إلى العربية حتى اليوم. وعلى سبيل المثال، فالإسرائيليون يصادرون الأرض الفلسطينية، ويقتلون الأطفال، ويبطشون بالناس وينكلون بهم لا لأن يشوع بن نون فعل ذلك قبل ثلاثة آلاف سنة، وإنما لأن الاستعمار الاستيطاني يتوسل هذه الوسائل كي يستمر في احتلاله. ألم يقم المستعمرون الأوروبيون البيض بإبادة السكان الهنود؟ ألم يقم المستوطنون البيض في جنوب إفريقيا باستعباد السكان الأصليين؟ هل كان هؤلاء بحاجة إلى التلمود أو التوراة ليتعلموا هذه الطرائق المهنية؟

الترجمة الأولى

كان محمد خليفة التونسي أول من ترجم بروتوكولات حكماء صهيون إلى العربية. وقد ادعى في مقدمة الترجمة "أن ما من أحد ترجم البروتوكولات أو عمل على إذاعتها بأي وسيلة إلاّ انتهت حياته بالاغتيال أو بالموت الطبيعي ظاهراً." وأضاف: "إن كل من ترجم الكتاب في إنكلترا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا قد قتلوا، وإن الصحف التي نشرته قد نُسفت لأن اليهود حريصون على أن يظل سراً" (ص ١٧). وهذا الادعاء لا سند له، ومبتذل في الوقت نفسه لأنه يجانب الحقيقة ويهدف إلى إضفاء هالة زائفة من الأهمية والرهبة على البروتوكولات. والحقيقة أن ناشراً واحداً أو مترجماً للبروتوكولات لم يُقتل، بمن فيهم محمد خليفة التونسي نفسه، ولم تتعرض أي دار نشر للنسف أو للتدمير. والبروتوكولات، منذ البداية، لم تكن كتاباً سرياً، وإنما هي كتاب شديد الشيوع.

خرافة البروتوكولات

الشائع أن بروتوكولات حكماء صهيون كتبت في سنة ١٨٩٧ في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في مدينة بازل السويسرية، وأن تيودور هيرتسل تلاها على هذا المؤتمر، وأن المؤتمرات الصهيونية اللاحقة هي نفسها مؤتمرات حكماء صهيون، والبروتوكولات هي محاضر المؤتمر الأول.

يسخر عبد الوهاب المسيري من هذه الأفكار الرائجة كلها، ويرى أن البروتوكولات وثيقة مزيفة، وأنها "نُشرت، أول ما نُشرت، في سنة ١٩٠٥ ملحقاً لكتاب من تأليف سيرغي نيلوس، وهو موظف روسي كان يعمل لدى الكنيسة الأورثوذكسية" (ص ١٢). ويؤكد الكاتب "أن البروتوكولات وثيقة مزورة استفاد كاتبها [سيرغي نيلوس] من كتيب نشره صحافي فرنسي يدعى موريس جولي في بروكسل سنة ١٨٦٤ يسخر فيه من نابليون الثالث." أمّا عنوان الكتيب فهو "حوار في الجحيم بين مكيافيلي ومونتسكيو" أو "السياسة في القرن التاسع عشر" (ص ١٣). وفضلاً عن ذلك فقد وقع كتاب "حوار في الجحيم" بين يدي ألماني يدعى هيرمان جودش، واسمه الأصلي جون راتكليف، الذي أعاد صوغ "حوار في الجحيم" في قصة خرافية عن المؤامرة اليهودية

وأصدرها في سنة ١٨٦٨ عن سلسلة روايات "بياريتز" (ص ١٤). وقد كشفت جريدة "التايمز"، في ١٦ و١٧ و١٨ آب/أغسطس ١٩٢١، أوجه الشبه بين البروتوكولات وكتاب موريس جولي، ونشرت فقرات مطولة من الكتابين أظهرت التطابق التام بينهما. ووصفت هذا التطابق بأنه سرقة أدبية (ص ١٤). وعلى سبيل المثال، فقد ورد في البروتوكول الثاني عشر ما يلي: "إن الصحافة اليهودية ستكون مثل الإله الهندي فشنو لها مئات الأيدي." أمّا في كتاب " حوار في الجحيم" فقد ورد على لسان مكيافيلي: "إن صحافتنا مثل الإله فشنو سيكون لها مئة ذراع."

في أي حال، فإن عبد الوهاب المسيري يرى أن البروتوكولات ليست نصاً يهودياً على الإطلاق، وإنما هي نص روسي بامتياز (ص ٢٠). ويتساءل: لماذا كتبت البروتوكولات بالروسية وليس بالعبرية ما دام حكماء صهيون يريدون أن تبقى هذه الوثيقة سرية؟ ويقول المسيري: لا يوجد في البروتوكولات أي كلمة عبرية، أو أي إشارة إلى العهد القديم أو التلمود أو كتب الزوهر والباهر، وهذا يدل على أن كاتب البروتوكولات روسي يجهل اليهودية. كذلك لا تذكر البروتوكولات فلسطين قط. وكبرهان إضافي على زيف هذه الوثيقة يقول المسيري إن البروتوكولات تهاجم الكنيسة الكاثوليكية والحركة اليسوعية، وهذا يدل على النزعة الأورثوذكسية للكاتب الأصلي. وهي تهاجم الماسونية، الأمر الذي يشير أيضاً إلى المنشأ الروسي لها. ثم إنها تهاجم بنيامين دزرائيلي لأنه كان مكروهاً لدى النخب الروسية الحاكمة بسبب مساندته الدولة العثمانية كي تبقى حاجزاً أمام الإمبراطورية الروسية. وتهاجم البروتوكولات كذلك الاقتصاد الحر والدستور والديمقراطية والانتخابات، وهذه الأمور كانت جزءاً من مطالب المعارضة الروسية بعد ثورة ١٩٠٥، وكان من شأن هذه المطالب لو تحققت أن تزعزع النظام القيصري بأسره.

البروتوكولات تكذب نفسها

تزعم البروتوكولات أن اليهود وقفوا دائماً وراء جميع الثورات التي كانت تطالب بفكرة الحرية. والحقيقة أن أغلبية الثورات البشرية لم يكن لليهود فيها أي شأن، مثل ثورة سبارتاكوس لتحرير العبيد في روما القديمة، أو ثورة الزنج في البصرة، أو حتى الثورات الصينية والجزائرية والكوبية الحديثة. وتتنبأ البروتوكولات بأن اليهود سيفرضون ضريبة مضاعفة على كل كتاب يقل عن ٣٠٠ صفحة، وسيحذفون من مناهج الدراسة جميع تعاليم القانون المدني، وسيمحون جميع أنواع التعليم الخاص (ص ٣٦). وبطبيعة الحال، لم تُفرض في الأمس، ولا اليوم، ضريبة على الكتب في أوروبا، وما زال القانون المدني جزءاً شديد الأهمية من القوانين العامة، والتعليم الخاص أكثر انتشاراً من التعليم الرسمي.

ولمزيد من النقض والدحض، فإن البروتوكولات لم تتنبأ بالمحرقة النازية قط، ولم تشر إلى حروب المياه الشائعة اليوم في الكتابات السياسية والاحتمالات المستقبلية. وأبعد من ذلك، فإن هيرتسل نفسه تنبأ بأن ألمانيا سترعى المشروع الصهيوني وترعى مستقبل اليهود، وكانت النتيجة أن ألمانيا حاولت إبادتهم. وتنبأ دافيد بن – غوريون بقيام دولة مسيحية في لبنان، وهذا لم يحدث قط.

أغلاط عابرة

إن كتاب "البروتوكولات واليهودية والصهيونية" إنجاز نقدي ثاقب، وهو يقدم مادة معرفية فائقة الأهمية، ويعيد الاعتبار إلى التفكير العلمي حيال المنوعات الخرافية التي تسمم الثقافة العربية المعاصرة. إنه محاولة جدية وعميقة للوقوف ضد ترويج البروتوكولات في الأذهان العربية، لأن من مخاطر هذا الأمر أن تترسخ لدينا فكرة التفوق اليهودي، وأن ننساق إلى الاعتقاد

بامتلاك اليهود قدرات خارقة. ومن شأن هذا الاعتقاد أن يساعد السلطات العربية في تبرير عجزها بذريعة "المؤامرة اليهودية"، تماماً مثلما استند الألمان إلى البروتوكولات في تبرير هزائمهم في الحرب العالمية الأولى.

وعلى أهمية هذا الكتاب فقد رصدنا غلطتين فيه، وها نحن نشير إليهما للضرورة النقدية والعلمية:

١ ـ يقول المسيري إن عنوان كتاب موريس جولي هو "حوار في الجحيم بين مكيافيلي ومونتسكيو أو السياسة في القرن التاسع عشر" (ص ١٣). والصحيح أن كتاب "حوار في الجحيم" يختلف تماماً عن "حوارات مكيافيلي ومونتسكيو". فالحوارات بين مكيافيلي ومونتسكيو صدرت في سنة ١٨٥٠ في برلين عن دار "فرانز دانكر"، وكان مؤلف الكتاب يدعى جاكوب فينيدي. ومن هذا الكتاب استمد موريس جولي، على الأرجح، مادة كتابه "حوار في الجحيم" ونشره في سنة ١٨٦٤. ثم جاء هيرمان جودش (جون راتكليف) ليصوغ من "حوار في الجحيم" قصته الخرافية عن "المؤامرة اليهودية".

٢ ـ في أسفل الصفحة ١٠٣ ورد المصدر التالي: "م. بحيري، 'الحركة الصهيونية منذ نشأتها'، في 'القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني' (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٣)، ص ٢٢."

لا توجد في هذا الكتاب قائمة بأسماء المؤلفين، ولا أي فصل بعنوان "الحركة الصهيونية منذ نشأتها". فكيف ظهر اسم "م. بحيري" (أي مروان بحيري) إذن؟ ثم إننا عدنا إلى الصفحة ٢٢ من كتاب "القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني" فلم نعثر على النص الذي استند إليه المؤلف والذي يتضمن معلومات عن كتاب أوليفانت "أرض جلعاد" الذي ترجمه سوكولوف إلى العبرية. وفوق ذلك، ولمزيد من سد الذرائع واستنفاد الحجج، قمنا بالتفتيش في جميع الصفحات الأُخرى في الكتاب التي يظهر فيها اسم أوليفانت واسم سوكولوف فلم نعثر على ضالتنا. ولهذا، فالأرجح أن يكون النص الذي استند إليه المؤلف مقتطفاً بالخطأ من مصدر آخر وليس من مظانه مباشرة. وهذا المصدر "الآخر" أخطأ في الاقتطاف، فانتقل هذا الخطأ إلى كتاب "البروتوكولات" بالنسخ.

صقر أبو فخر